البلاغة الموسّعة من السّرديات الكلاسيكيّة
إلى بلاغة الرّواية عند محمد مشبال

د. بومعزة غشام، جامعة ابن خلدون. تيارت.

مقدّمة:

يقدّم محمد مشبال مشروعا جادا في مجال البلاغة الجديدة، من خلال مدوّناته التنظيرية /التطبيقية، التي تكرّس التحليل البلاغي مقاربة تفاعلية مع مختلف الخطابات، بعيدا عن النظرة التعليمية المردّدة لقوانين القول التجريدية بعيدا عن السيّاق الخطابيّ، فالبلاغة ليست مجرّد نظرية تجريدية تقف عند النسق التواصلي جماليا وحجاجيا، بل هي نظرية تأويل للخطابات في سياقاتها الملموسة، وينطلق هذا المشروع البلاغيّ من أسئلة مُؤسِّسةٍ تحاول فهم ظروف تصدّع البلاغة العربية القديمة، وانحصار دورها في التحسين الأسلوبيّ البعيد عن سياق التلفّظ، ولمقاربة الطرح المشباليّ نورد الأسئلة الآتية:

1 – ما سبيل إنتاج نظرية بلاغية جديدة تربط بين الأنواع الخطابية وبين أنواع الحجج وفق المثلث: الإيتوس والباتوس واللّوجوس؟

2 – كيف ساهم محمد مشبال في إنتاج نظرية بلاغية تقوم على تأمّل الخطابات وتأويلها بدل الاكتفاء بتصنيف ورصد تقنياتها الجمالية.

3 – ما مرجعية محمّد مشبال في مشروعه البلاغيّ؟

4 – ما إضافات محمد مشبال إلى المدوّنة البلاغية العربية الجديدة؟

في الأخير تسعى ورقتنا البحثية إلى:

- رصد بعض الاستنتاجات البلاغية في تطبيقات محمد مشبال، كقضية النثر بين التخييل والحجاج، وقضية التصوير والحجاج في بلاغة الجاحظ، وقضية التمثيل السّردي والخطاب البلاغي.. وغيرها.
- المقولات البلاغيّة التراثية والحداثية وجنس الشّعر.
- بلاغة الرّواية ومصداقية تجربة التخييل.
- استخلاص تطوّر التحليل البلاغي المشبالي، والوقوف عند جديده وكيفية انفتاحه على مختلف الخطابات الشعرية والنثرية القديمة والخطابات السّردية الحداثية وبخاصّة الخطاب الرّوائي وجعلها حقلا للتحليل البلاغي الحجاجي الجديد.

فرض التعدّدُ الأجناسيُّ على المقاربات البلاغيّة الخروجَ عن نمطيتها في تحليل الخطابات باقتصارها على الخطاب الشعريّ في جانبه الجماليّ الأسلوبيّ، لتحاور هذه المقاربات مختلف الخطابات في بُعدها التداوليّ الحجاجيّ، علما بأنّ «البلاغة علم كلّي، يقتضي ضبطه الإحاطة بعلوم اللّسان، وعلوم الإنسان المختلفة المتدخّلة في تكوين الذّات المنتجة للخطاب»[1]، وبنفس هذه النظرة يقول جابر عصفور: «الجانب اللّغوي في علم البلاغة بمثابة علم لسان كلّي يتميّز عن العلوم اللّغوية الجزئية ويتجاوزها»[2].

إنّنا أمام علم خرج به الأكاديميون الجامعيون في خمسينات وستينيات القرن من مكانته المتضعضعة إلى مكانة أكثر نبالة، فارتقوا به وفق خطّين هما:

1 – خطّ بيرلمان Chaïm Perelman و"تتيكا L. Olbrechts Tyteca، وروبول Olivier REBOUL الذي أعطى اهتماما كبيرا للمكوّن الحجاجي، وذهب إلى أنّ «البلاغة هي فنّ الحجاج»[3]، باحثا عن أمثلته وموضوعاته في الخطابة الدينية، والقضائية والسياسية والفلسفية، متوصّلا إلى أنّ البلاغة تهدف إلى الإقناع.

---

[1] د. محمد العمري، اللاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، ص 5.

[2] د.جابر عصفور، مفهوم الشّعر دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط5، 1995، ص 158.

[3] H. Morier, Dictionnaire de Poétique et de rhétorique, 4éme édition P.U.F, Paris, 1989.p.3.

2 – خطّ هنري موريه H. Morier، وجيرار جينيت G.Genette ، وجون كوهن J. Cohen ، ومجوعة موGroupe MU ، الذي يجعل من البلاغة دراسة للأساليب وأشكالها، وأنّها هي التي يجعل من النصّ أدبيا (الشّعرية).

بعد هذه القفزة الابستيمولوجية النظرية وجد البلاغيون الجدد العرب أنفسهم منفتحين على البلاغة الجديدة الغربية، فعرفت البلاغة العربية محاولات «أكثر نجاحا لاكتشاف أرض جديدة، تحقّقت عبر السّعي نحو عقد تحالفات مع حقول أخرى مثل التداولية، والسيميوطيقا، وتحليل الخطاب، فتمكّنت عبر هذه التحالفات من صياغة هوية متجدّدة»[1]، وبرزت أسماء عربية كثيرة اهتمّت بالبلاغة الجديدة أمثال حمادي صمود ومحمد العمري، ومحمد الولي وعبد الله صولة وسامية الدريدي ومحمد مشبال.

مشروع محمد مشبال البلاغي:

ينطلق محمد مشبال من قراءة البلاغة التراثية محاورا ما خلّفه القدامى من نتاج بلاغيّ معتمدا مقاربة جديدة «تكشف أبعادَها الحجاجية، وتخلّصها من أسر المحسّنات وهيمنة الصورة الشعرية...عبر كشف نجاعة المنظور التداولي في مقاربة مختلف أشكال الخطاب خاصّة من خلال بلاغة الحجاج التي شكّلت موضوع الكثير من الدراسات البلاغية»[2]، وحين الاطّلاع على التراكم التنظيري والتطبيقي الذي أنتجه محمد مشبال نسلّم بأنّ للباحث مشروع يسعى إلى تحقيقه، علما بأنّ المشروع «يعني تصوّرا نظريا لعمل قابل للإنجاز»[3].

إذا كان المشروع يحتّم منهجا لاتّباعه حين الدّراسة فما المنهج الذي اعتمده محمد مشبال في مقارباته لمختلف الخطابات؟

---

1 د. عماد عبد اللّطيف، ماذا تقدّم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ ضمن كتاب بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، دار شهريار، العراق، ط1، 2017، ص 28.

[2] عبد الواحد المرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءة في أعمال البلاغي الدكتور محمد مشبال، عالم الكتاب الحديث، إربد، الأردن، 2017، ص 26.

[3] محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرّباط، ط1، 2014، ص 249.

إنّ التفكير البلاغيّ للدكتور محمد مشبال ينطلق من مسلّمة هي أنّه لكي يرتقي الدّارس البلاغيّ بالبلاغة العربية عليه أن يخرج بها من تصنيف الأقوال وتقنياتها الإقناعيّة إلى تأمّل الخطابات وتأويلها، دون التنكّر لقديم والتحيّز لجديد، وهو ما يتمثّله في كتابه أسرار النقد قائلا: «الحقّ أنّني لا أنحاز إلى كلّ ما هو حديث، كما أنّني لا أتنكّر لكلّ ما هو قديم، فقيمة أيّ مفهوم نقدي تحدّدها نتائجه في الحقل الأدبي بمفهومه الواسع ... فيجد القارئ مفهومات من قبيل البلاغة النوعية، والحياة والصّورة، والذاتية، والذّوق، والسياق النصّي، والبلاغة الرّحبة، وهي مفهومات تنتمي إلى مناهج مختلفة وتصوّرات متباعدة»[1]، فالبلاغة الرحبة عند مشبال هي أن تتعامل البلاغة مع جميع الأنواع الأدبية، ولا تختزل الأسلوب في الصورة البلاغية المتعالية.

فما هي الأسئلة التي يطرحها محمد مشبال في مشروعه النّقديّ والبلاغيّ الجديد؟

أوّل سؤال يطرحه محمّد مشبال هو سؤال الهوية والوجود ثمّ سؤال المنهج، فيسائل الحركة النّقدية عن هويّتها ووجودها الحقيقي، وهل يمكن للنّقد أن يوجدَ دون المشاركة في صنع الحداثة ودون إثرائها بالأفكار والمفاهيم المبتدعة؟ فالنّقد ليس باستهلاك ما أوجده التراث من أعمال قدامة والجرجاني والقرطاجني، ولا باستهلاك أعمال باختين Bakhtine وتودوروف Todorov وبارت Barthes، بل هو القراءة **الواعية التأويليّة** للتراث، وهو القراءة المبدعة لنتاج الآخر حين تلقيه، وهو المشاركة الفاعلة في الثقافة الإنسانية، وعليه على الناقد العربيّ الاحتراس من التجريب والتثوير والمغامرة التي تؤدّي إلى الإلغاء وضياع الهوية، ومن هنا يطلب محمد مشبال من النقّاد «بلورة تصوّر نقدي يقوم على التقريب والاتصال بين المناهج النقدية قديما وحديثا، بدل الانقطاع والانفصال، وهي فكرة تقوم على ثوابت أصيلة وتسوّغها دواع مكينة، قوامها أنّ الغاية الحقيقة لأيّ ممارسة نقدية هي التواصل سواء مع العمل الأدبي أو القارئ»[2].

كيف يمكن للبلاغة العربية أن نكون بلاغة خطاب لا بلاغة جملة؟

---

[1] د. محمد مشبال، أسرار النقد الأدبي، مقالات في النقد والتواصل، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط1، 2002، ص 5.

[2] المرجع نفسه، ص6.

في مشروعه عن البلاغة الرّحبة يستحضر محمد مشبال موقف أمين الخولي في حاجة بلاغتنا إلى سعة شاملة وبسطة وافرة، قناعة منه بقصور «البلاغة القديمة الفادح وعجزها عن تناول الأعمال الفنيّة المحدثة في شمولها وكلّيتها، نتيجة للنزعة الجزئية المسيطرة عليها، ممّا يجعلها تقف عند حدود الجملة أو ما في مقامها، وضرورة تطويرها حتّى تشمل المتتاليات والنصوص بكاملها، من هنا كان التحديد الأمثل للبلاغة المعاصرة بأنّها بلاغة الخطاب»[1].

التفكير البلاغي عند محمد مشبال/ التصوّر الجديد:

مواكبة لحركة التطوّر التي شهدتها البلاغة كغيرها من المعارف والعلوم، توصّل الدكتور مشبال إلى مفهوم متحوّلا للبلاغة موصوف بالجدّة، هو البلاغة الجدية، الذي يعتبره ثورة على «مفهوم التحسين أو التزيين الذي ارتبطت به وظيفة البلاغة، وهو ما يعني أنّها استوعبت هذا التحسين باعتباره عنصرا تابعا لوظيفة أهمّ هي الإقناع»[2]، هذا التصوّر الجديد جعل مشبال يرى أنّ البلاغة في الخطابات لا تجسّدها بلاغة الألفاظ فقط، وإنّما بلاغات أخرى مثل بلاغة الجنس الأدبيّ، ففي النادرة تستمدّ البلاغة قانونها من غير القانون المركزي المتمثّل في الجمال اللّفظي، بل من قوانين أخرى متعدّدة بتعدّد المقامات التواصلية وأجناس الخطاب الأدبي وغير الأدبي.

صار التفكير البلاغي عند محمد مشبال تفكيرا متحوّل من البلاغة القديمة إلى البلاغة الجديدة التي لا تقصر البلاغة في الخطابات الأدبية بل تنفتح على خطابات متنوّعة كثيرة منها الخطاب السياسي القائم على نجاعة التأثير في الجمهور، وصار البليغ مَن يمتلك كفاءة التأثير لا كفاءة التعبير، وهي كفاءة خاضعة للمقام والسيّاق، وتحوّل الاهتمام من المتكلّم إلى المخاطب وما يمتلكه من معايير قيمية اجتماعية نفسية وثقافية، إنّه باختصار العودة بالبلاغة إلى مفهومها الإقناعي.

[1] أمين الخولي، فنّ القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1996، ص10.

[2] محمد مشبال، محاضرات في البلاغة الجيدة، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ط1، 2021، ص 14.

يضع محمد مشبال خطّة للعودة بالبلاغة إلى مفهومها الإقناعي، تتلخّص في ثلاث عمليات نشير إليها في الشكل رقم (3):

1 – عملية الإيجاد: وهي مرحلة يبحث فيها البلاغيّ عن الحجج.

2 – عملية الترتيب: وهي مرحلة ترتيب الحجج في الخطاب المنتج.

3 – عملية الأسلوب: وهي مرحلة التقديم والصياغة اللّفظية.

كيف يتولّد الإقناع؟

يتولّد الإقناع من مجموع هذه العمليات الثلاث، المشكّلة لما يسمّيه مشبال بالقراءة الحجاجية التي تنشأ من تلاحم مكوّنات الإقناع (الحجج القابلة للرّصد، موقع الحجج في الخطاب، الشكل اللّفظي للحجج).

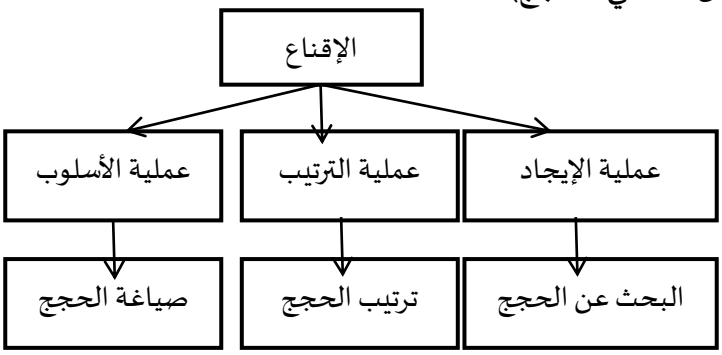

الشكل (3) مكوّنات الإقناع

ما القراءة الحجاجية؟

القراءة البلاغية الحجاجيّة هي البحث عن الحجج الظاهرة والمضمرة لرصدها ووصف آلياتها، وتأويل موقعها ووظيفتها في نباء الخطابات والنصوص، وصولا إلى تشكيلها وصياغتها لفظيا، فيشمل التحليل الحجاجيّ كلّ المكوّنات التي تسهم في بناء الإقناع، بداية بالمحتوى والمضامين الأخلاقية والعاطفية، مرورا ببنية الخطاب وصولا إلى الصياغة الأسلوبية.

<u>البلاغة والخطابات المتنوّعة:</u>

سعى محمد مشبال لأن تكون البلاغة رحبةً تحاور مختلف الخطابات وأنواعا متعدّدة من القول، وبخاصّة الخطابات المعاصرة بمفهومها الكونيّ، وتمثّلا لمقولات ميخائيل

باختينBakhtine Mikhail ، وجيرار جينيت Gérard Genette ، وبول ريكور Paul Ricœur، وتزيفتان تودوروف Tzvetan Todorov ذهب إلى ضرورة تعميق الروابط بين كلّ التخصّصات المعرفية، متجاوزا ما وقعت فيه البلاغة من تدهور بانحصارها في نظرية الشّعر وبعدها عن البلاغة العامّة والبلاغة الجديدة التي استشرف جينيت «أنّها ستكون سيميائية أنواع الخطاب»[1].

إذا كان جينيت يعيب على الكتابات البلاغية المتأخّرة نظرتها القاصرة في الاكتفاء بنظرية الشّعر وبنظرية الأسلوب منها، فإنّ بول ريكور يقرّ بما كان للبلاغة الأرسطية القديمة من اشتمالها على نظرية الحجاج، ونظرية الأسلوب ونظرية تأليف الخطاب[2]، وفق الشكل رقم (1):

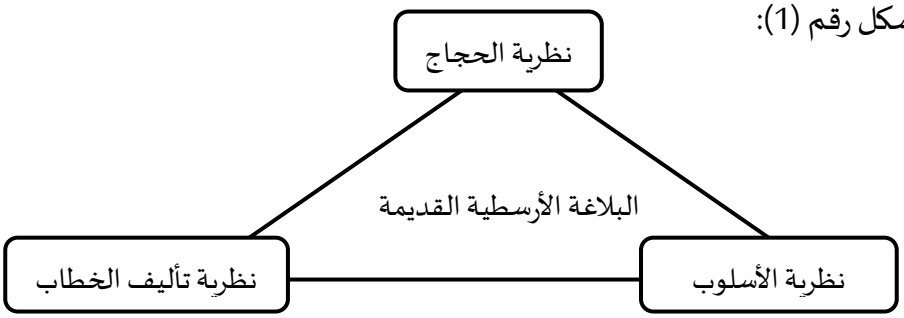

الشكل رقم (1) البلاغة الأرسطية

إنّ انفتاح محمد مشبال على النظرية البلاغية الغربية جعله يتوصّل – حين دراسته للبلاغة العربية - إلى استنتاجات نجملها في الآتي[3]:

- ✓ انحلال التوازن القائم بين أجزاء البلاغة وانحصارها في الأسلوب.
- ✓ اختزال البلاغة في نظرية المحسّنات ونظرية الاستعارة.
- ✓ تعارض المفهوم الرومانسي للشّعر مع البلاغة الإقناعية.
- ✓ تحوّل البلاغة إلى تجويد الكلام وخلق أنماط خطابية جمالية.
- ✓ تحوّل البلاغة إلى معرفة باللّغة لتذوّقها.

[1] G. Genette, la rhétorique restreinte, in figures3, Ed de seuil, paris, 1972, collection poétique, p.10.

[2] Paul Ricœur, la métaphore vive, Ed de seuil, paris, 1975, p. 13.

[3] محمد مشبال، مقولات بلاغي في تحليل الشعر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1993، ص 20.

✓ الابتعاد عن النظر إلى اللّغة على أنّها فعل ووظيفة.

بلاغة الرّواية أو بلاغة السّرد:

إذا كانت الرّواية هي النّوع الأدبيّ الأكثر نموذجية للمجتمع[1] في كلّ تناقضاته كما يذهب إلى ذلك لوكاتش، فإنّه على البلاغة أن تنفتح على المناهج النّقديّة لتستثمر أدواتها، الأمر الذي دفع إلى ظهور صنف من الدّراسات يستثمر الأدوات البلاغية في سياق خطابيّ جديد، بتوسيعها وإعادة صياغة مباحثها، ونقلها إلى بيئة مغايرة غنية بإمكانات جديدة، ويدخل هذا الصنف ما كتبه لويس شيخو في كتابه "علم الأدب" إذ يتناول للرّواية تمثلا لبعض أدوات مناهج النّقد الرّوائي الأوروبية، باستثمار أدوات البلاغة فيقول: «أحسن رواية ما اتّصفت بأربع خواص: الإيضاح والإيجاز والإمكان والتلطّفُ»[2]، ثمّ توالت الدّراسات التي تُدرج ضمن ما يسمّى "بلاغة السّرد" وبخاصّة الأعمال التي قدّمها محمد أنقار تأثرا بستيفن أولمان في تمثّل مفهوم الصورة الرّوائية، على أساس بلاغة رحبة ليست عامّة، تصبو إلى أن تستشف من النّصوص الأدبية قيّما جمالية متحقّقة فيها بالفعل بدل أن تكون مستمدة من مبادئ المناهج الأدبيّة وقواعد الدرس النقدية الجاهزة... هي بلاغة تحلم بأن تتوصّل إلى جسّ نبض الجمل والتعابير والصّور لنسمع أنينها الإنسانيّ الحقّ ووصفها الصادق للقيم وقدرتها على ترجمة المعاناة أو الحبّ البشريّ ترجمة أدبية أصيلة.[3]

ينضاف إلى لبنة بناء مشروع البلاغة الرّحبة ما قدّمه محمد مشبال تأثّرا بتنظيرات ستيفن أولمان حول الصورة الرّوائيّة، والذي حرص على دمج اللّسانيات في المناهج الأدبيّة التي تتحقّق في الصّورة، الأوسع إيحاء من المعجم والنّحو في التعبير عن الفكرة، فالصور في تشبيهاتها واستعاراتها أقدر على تشكيل تيمات الرّواية بكثير من الدّقة والتماسك والقدرة التعبيرية، فهي تفضي إلى جوهر العمل الفنّي، بتطوّرها من مستوى الاستعارات إلى مستوى

---

[1] جورج لوكاتش، الرواية كملحمة بورجوازية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص 25.

[2] لويس شيخو، علم الأدب، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، ط2، 1897، ص 254.

[3] د. محمد مشبال، بلاغة الصورة محمد أنقار ناقد السمات ومبدع السرد، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2019، ص 16.

الرّموز الكبرى، إذ «تعدّ الصّور أنجع الوسائل الأسلوبيّة في رسم الشّخوص الإنسانية، إنّها علامة تدلّ على السّمات المميّزة للشّخصيات التي تستعملها»[1]، وبعد محمد أنقار ومحمد مشبال وغيرهما تتّسع دائرة الاشتغال ببلاغة السّرد لتظهر دراسات من مثل بلاغة النصّ المسرحي، وبلاغة القصّة، وبلاغة المقامة، وبلاغة النادرة، وبلاغة الرّسالة وبلاغة الرّواية.

بلاغة الرّواية بين التنظير والأجرأة:

يستثمر محمد مشبال الترسانة المصطلحية الإجرائية التي تأسّست لديه من قراءاته المعمّقة للتجارب النظرية الغربيّة والمحاولات التطبيقيّة العربيّ، فيشكّل أدوات للقراءة البلاغية الرّحبة في تعاملها من النصوص السّردية التراثية والرّوائية ومن هذه الأدوات:

أ. الصّورة الرّوائيّة:[2]

تُجاوز الصّوة الرّوائيّة الصورة البلاغيّة في مستوى تحقيق الوظائف البلاغية الجمالية إلى خضوع التعبير اللّغوي لمكوّنات سرديّة، ونصّية، ولفظيّة، وبلاغيّة، أي إلى نسيج نصّيّ كلّي تمليه أجناسيّة النصّ، ففي حال الرّواية فإنّ الصّورة الرّوائيّة كأداة إجرائيّة وفق تجنيس الرّواية تعني خضوع المكوّن اللّغويّ أي اللّغة في تركيبها إلى المكوّن السّرديّ والنصّي واللّغويّ والبلاغيّ في كلّ منصهر انطلاقا من اللّفظ المفرد إلى المقطع السّرديّ: [3]

1. ماهية الحكي أو السّرد في انطلاقه وتتابع مقاطع بنائه وتواليها، وتسلسل أحداثه، وترابط سوابقه بلواحقه.

2. المكوّنات النصّية بما فيها من توتّر وإيقاع وتكثيف وديناميّة.

3. مكوّنات الحكي من شخصيات ومشاهد ووقائع وفضاء وتشويق وتحفيز.

---

[1] ستيفن أولمان، الصورة في الرواية، ترجمة رضوان العيادي ومحمد مشبال، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص 19.

[2] د. محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية، مكتبة الإدرسي للنشر والتوزيع، تطوان، المغرب، ط1، 1994، ص 16.

[3] د. محمد مشبال، الرواية والبلاغة نحو مقاربة بلاغية موسّعة للرّواية العربية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2022، ص 36.

4. وظائف اللغة من تنظيم وتجسيم وتشخيص وتلوين وتنغيم وتمثيل، إضافة إلى الوظائف البلاغية والتداولية (الصور البلاغية).

وقد مثّل محمد أنقار هذا الانصهار المكون للصّورة الرّوائية في الشكل (2)

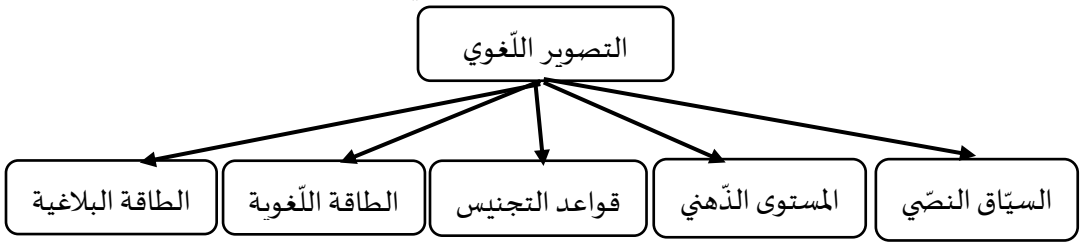

الشكل رقم (2): انصهار مكوّنات الصّورة حسب تصوّر محمد أنقار

على المشابهه والاستعاره وغيرها من العلاقات المجازيه إلى استمداد الوظائف الجماليه «ضمن المجرى التخييليّ للنّصّ الرّوائيّ باعتباره سيّاقا مخصوصا من الشخصيات والأحداث والفضاءات»[1]، فتندغم هذه الإمكانات في الإمكانات النصية والتجنيسية والجمالية والدلالية، لتلتقي مع الصورة الشعرية الكلية مشكلة إفرازا للمتخيل لكل ما يتضمنه من جوانب نفسية واجتماعية، وهو ما يسم التصوير السردي ويميزه عن التصوير الشعري.

ب. من الوجه البلاغي إلى السمة الرّوائيّة:

يرى محمد مشبال أنّ البلاغة الرّحبة عند محمد أنقار تتكئ على مفهوم السّمة، أو التقنية البلاغية، وتحيل على الخطط التعبيريّة أو ما يصطلح عليه بالوجوه الأسلوبيّة Figures de Style أو الاستراتيجيات الخطابية في تحليل الخطاب، والسّمة هي القيمة التعبيرية المتعالية التي تفرزها السياقات غير المألوفة في النظر البلاغي، وهذه السياقات هي:[2]

- المكوّنات النّوعيّة الخاصّة بالجنس الأدبيّ التي تؤدّي وظيفة جمالية.

[1] د. محمد مشبال، الرواية والبلاغة نحو مقاربة بلاغية موسّعة للرّواية العربية ،ص 37.

[2] المصدر نفسه، ص 21.

- انصهار الشكل بالمحتوى.
- تعدّد المصادر: المذاهب الفنيّة والمدارس الفكرية وأنماط السلوك والأخلاقيات والطباع والأمزجة.
- اللّفظ المفرد والجملة والفقرة.

السمة البلاغية الغريبة:

يستعرض محمد مشبال جملة السمات المضمونية المتعذّرة عن الضبط والتحديد هي: (التأمّل، والتوجّس، والإيلاف، والرّوحانيّة) التي تقابل السمات ذات الوجه البلاغيّ الجماليّ التجريديّ المضبوطة والمحدّدة كالبساطة، والتدرّج، والتوازن، والمراوغة، والإيحاء، والتجسيد، والسّخريّة.

إنّ هذه السمات خاصّة بأنواع روائيّة بعينها تعرف بالرواية التأمّليّة، ويعتمد المحلّل البلاغيّ محمد أنقار في استثماره لسمة "التأمّل" على مرجعية غربية هي مفهوم التأمّل عند "ميلان كونديرا" Milan Kundera كونه تأمّل تساؤليّ افتراضي لا تأمّل تأكيديّ يقينيّ، والتأمّل استراتيجية خطابيّة متعدّدة المستويات تختلف باختلاف شخصيات الرّواية، فهو بين (الصّمت، والحزن، والشرود، والمشاهدة، والمسالمة)، إضافة إلى كونه تغلغل في جميع مكوّنات الرّواية، أمّا "الإيلاف" فهو استراتيجية خطابيّة ثانية تؤهّل القارئ ليألف التأطير المكانيّ الرّوائيّ، وأمّا "الروحانيّة" فهي سمة تنشغل بسؤال المصير والرّوح وقضايا النّفس، وتتشكّل في مظاهر خطابيّة كالتأمّل والمناجاة واللاتحديد والاستفهامات والأسئلة، والشرود والانخطاف الروحاني.

ج. البلاغة الرّوائية الجديدة:

المقاربة الثانية التي يحاول محمد مشبال تتبّع خصوصيتها هي مقاربة أحمد اليابوري الموسومة "في الرواية العربية التكوّن والاشتغال"، اعتمادا على البلاغة الجديدة انطلاقا من وضعية اللّغة العربيّة وعلاقتها بالمفهوم الجديد للبلاغة والجنس الرّوائيّ، تحت

عوامل داخلية هي المكوّن اللّغويّ، وعوامل خارجية تتمثّل في المثاقفة، إضافة إلى عوامل مؤسّسة الرّواية الاجتماعية والثقافيّة والأدبيّة[1].

وتقوم هذه المقاربة في محاولة تأسيسها لبلاغة جديدة للجنس الرّوائيّ على جملة من المؤشّرات هي:

- استبدال اللّغة المثقلة بالبيان بلغة جديدة سرديّة مستمدّة من الحياة.
- قيام الرّواية على مسارات الإطار والمسارات المؤطّرة، وعلى الصورة الشعريّة في تركيباتها التشبيهية والاستعارية البسيطة، واستعاراتها السردية الكبرى والصغرى.
- إسهام المكوّنات الكلّيّة في بناء معمارية النّصّ الرّوائيّ وتلوين دلالاته.
- قيام المكونات على علاقات الانشطار والتفاعل لا على مجرّد المجاورة.
- خضوع النّصّ الرّوائيّ للقواعد الكبرى للبلاغة النّوعيّة بوصفها محكيات يحكمها التنظيم وما فيه من متتاليات ومتوازيات وسوابق ولواحق ومسارات سردية ووصفية وبلاغية ولغوية.

ج. المقاربة الأسلوبيّة الرّحبة:

تشتغل البلاغة الموسّعة أو البلاغة الرّحبة على ثلاثة حقول بلاغيّة هي: فنّ العبارة وهو من بلاغة الصّور القديمة، والبناء السّردي وهو من السّرديّات، والحواريّة وهي من شعرية باختين المعروفة بالأسلوبيّة السوسيولوجيّة، وبذا يكون التحليل الأسلوبي للرواية شاملا للمكونات الخطابية السردية بداية من الصوت والمعجم والصرف والتركيب والدلالة ومختلف المقولات والبنى السردية، وبنيات الزمان والمكان والوصف والشخصيات، فالتحليل الأسلوبي يضطلع بدراسة المستويين الأفقي والعمودي:

1. دراسة المقولات الأسلوبية في النص: المتغيرات اللغوية، البنى ولجمل السردية، الأشكال البيانية البلاغية.

[1] أحمد اليابوري، في الرواية العربية التكوّن والاشتغال، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000، ص 7.

2. دراسة البناء: مختلف البنيات الحكائية، الشخصية والرؤية، وأشكال الحوارية: التهجين والأسلبة والتنويع والباروديا والحوارات الخالصة.[1]

في حديثه عن الرّواية ومقوّماتها البلاغيّة اللامحدودة يذكر حميد لحمداني أنّه ينبغي حين الحديث عن بلاغة للرّواية «أن نجعلها متّصلة بميدان أوسع، وهو الأسلوبيّة بمعناها الوظيفي، أي تلك التي تنظر إلى الخصائص الأسلوبية الجزئية في علاقتها بالنصّ ككلّ بل وفي علاقتها بخصائص النّوع الأدبيّ... تأخذ بعين الاعتبار الجوانب الأساسية التالية:

. الطابع الوظيفي لكلّ ملمح أسلوبيّ في النصّ الرّوائيّ باعتباره كلا.

. علاقة الخصائص الأسلوبيّة للرّواية بالخصائص المميّزة لهذا النّوع ذاته.

. الأثر الحاسم لزاوية نظر الكاتب/والراوي الذي ينوب عنه في صياغة الشكل الأسلوبيّ العام للرّواية».[2]

من المقاربات الجادة المؤسسة لبلاغة رحبة موسّعة لقراءة الرواية مقاربة محمد فكري الجزار الموسومة "البلاغة والسرد: نحو نظرية سردية عربية" ينفتح فيها الناقد على حقلي البلاغة والسّرديات مستثمرا مقولات النقد الحداثي ومناهجه، ومفاهيم نظرية الأدب والأجناسية وعلاقتها بمظاهر بلاغة النص ومقولات البلاغة السردية الكلّية.

وتقوم هذه المقاربة على المزج بين حقل البلاغة ومقولاتها، وحقل السرد ومفاهيمه، وقد بنى الناقد تصوّره على إجراءين: الأوّل يقوم على تطبيق قواعد البلاغة ووجوهها على البنية السردية بدل البنية اللغوية، والثانية يتمثّل في استبدال ثنائية القصّة/السّرد، بثنائية المعيار اللّغويّ/الوجه البلاغيّ، على أساس التحولات والتغيّرات التي يجريها المتكلّم: المؤلّف أو السارد من انزياحات في القصة الواقعية، وفي مكوّنات الخطاب السّرديّ في الزمن والفضاء والحدث والشخصية والرؤية السردية.

[1] د. محمد مشبال، الرواية والبلاغة، ص 56.

[2] د. حميد لحمداني، أسلوبية الرواية مدخل نظري، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1989، ص 79.

وتتبنى هذه المقاربة ما عرفته النظريات النقدية والمناهج من جديد في مجال الدراسات اللّغوية والأسلوبية والسيميائية والبلاغيّة، بدمج عناصر النماذج بعضها ببعض، لبناء نموذج كفيل «ببناء أسلوبية تستوعب اجتهادات القدماء والمحدثين في مستويي البنية الداخلية للنصّ وأبعاده التداولية والدّلالية... وهذا ما حدا إلى استلهام الانزياح في التركيب أي العلاقة بين الدلائل، والانزياح في التداول أي العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقي، والانزياح في الدلالة أي العلاقة بين الدليل والواقع، ولكلّ مستوى من هذه المستويات صوره الانزياحية».[1]

إنّ تصوّر محمد فكري الجزار ينبني على النظر إلى البلاغة في سياق الجنس السّرديّ، فيقول: «تقع الظاهرة البلاغيّة بين مقولتين مهمّتين هما: المقام وهو خاصّ بالمرسل، ومقتضى الحال وهو خاصّ بالمرسل إليه، بمعنى أنّ البلاغة العربية بكافّة ظواهرها في علومها الثلاثة تقع ضمن نموذج الاتّصال اللّغويّ، والمقام على. وجه التحديد. مصطلح جامع لعدد من العناصر تبدأ من الكلّيّ وصولا إلى أصغر جزئي، أمّا الكلّي فهو الجنس الأدبيّ، وأمّا الأصغر فموجّهات الاختيار من اللغة».[2]

د. اللّغة السّرديّة:

تكمن بلاغة اللغة فيما يجريه المتكلّم من تحويلات على اللّغة لتأدية وظيفتي التخييل والحجاج، أمّا بلاغة السّرد فتكمن في التنظيم والبناء الذي يجريه الرّاوي حين القصّ وتقديم الشخصيات والتعبير عن أفكارها ومشاعرها ورؤاها السّرديّة ومختلف أنواع التبئيرات، ومن التقنيات السّرديّة ذات العلاقة بالبلاغة ثلاث تقنيات توزيعية: التتابع أي النظام السببي، والاستباق والاسترجاع أي النظام المكانيّ، أمّا التتابع ففيه «يتطابق الزّمن مع زمن القصّة، وهنا يحضر المفهوم البلاغيّ "المساواة"... وعلى المستوى السّرديّ، فإنّ

[1] هنريش بريث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: د. محمد العمري، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1989، ص 10.

[2] د. محمد فكري الجزار، البلاغة والسرد: نحو نظرية سردية عربية، الهيأة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2011، ص 395.

مساواة زمن القصّة لزمن سردها، ليس مطلقا كما يذهب السرديون بل إنّها تقنية قد يلجأ إليها الرّاوي كما يلجأ إلى سواها»[1]، وتقابل التتابع الزّمن تقنيتان بلاغيتان هما الاستباق والاسترجاع، له مبرّرات سياقية تجاوز المبرّرات الاتصاليّة يمكن تمثيلها في الشّكل رقم (3):

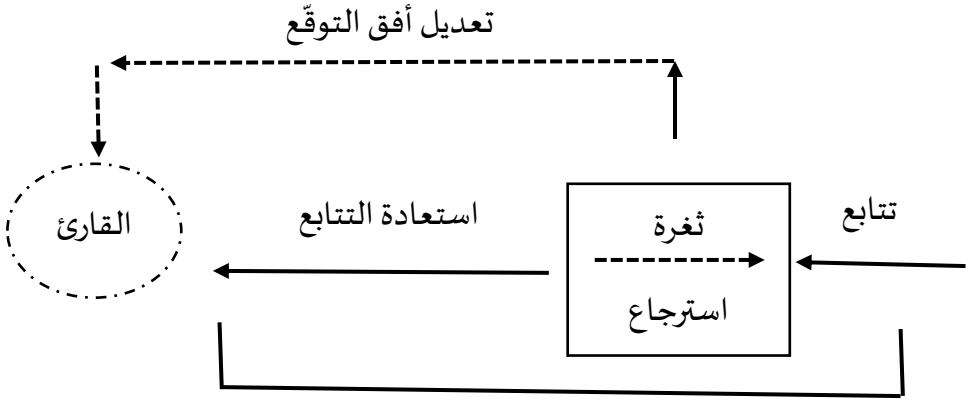

منطق مكاني: المجاورة

الشكل (4): التتابع الزمني في السرد

د. الزّمن بين البلاغة والسّرد:

تستثمر مقاربة محمد فكري الجزار جملة من أدوات البلاغة القديمة في ضوء مفاهيم السّرديات لقراءة السّرود، ومن هذه الأدوات المساواة والإيجاز والإطناب لتمثّل مقابلا لمصطلح "المدة" الذي قال به جيرار جينيت، فالأدوات البلاغية تقيس الكلام أو اللفظ بالنسبة للمعنى من حيث القلّة والتطابق والزيادة، بينما تقيس مفاهيم السّرد زمن الخطاب بالقياس إلى زمن الحكاية اعتمادا على مصطلح الكمية أو المدة، التي حصر جيرار جينيت تجلياتها في: اللاتواقتات، والمجمل، والوقفة، والحذف، والمشهد، والدرجة الصفر أين يتعادل زمن الحكاية وزمن الخطاب.

[1] المرجع السابق، ص 270.

ثم تستثمر المقاربة بلاغة التكرار على أساس أنّه يتيح فرصة تحليل السّرد وفق نمطين: نمط يروي أكثر من مرة ما وقع مرة واحدة، والنمط الآخر يروي مرة واحدة ما حدث مرات لا متناهية، ويكون التكرار في القصة لا في ملفوظ الراوي، لتكون مهمة الراوي لغوية في أساسها، ترتبط بسياقات النصوص التي ترد فيها، وبعد التكرار تستثمر المقاربة مصطلح الالتفات الذي تحصره البلاغة في الانتقال بين الضمائر بينما يعنى في السرديات الانتقال بين نمطين من أنماط الصيغة السردية دونما شروط، ومنه الالتفات إلى الوصف وإلى المشهد والقصة داخل القصة وغيرها مما يتيح حرية التصرف في الزمن من قبل الراوي في نقل السرد.

هـ. ضمير المخاطب وبلاغة السّرد:

المقاربة الأخيرة التي يقاربها محمد مشبال هي مدونة خيري دومة الموسومة "أنت ضمير المخاطب في السّرد العربيّ" لأجل إثبات أنّ هذه المدوّنة تسهم في بناء حقل بلاغة السرد، فيستهل المقاربة بإشكالية التمييز بين السرد بضمير المخاطب وحضور المخاطب في الأشكال السردية، ماسحا النظرية البلاغية منذ أرسطو حتى برلمان في فصلها بين الحجاج والبرهان، واستثمار تحليل الخطاب ولسانيات التلفظ للبرهنة على تجلي المخاطب في الخطاب السردي العربي.

اختيارا لا اضطرارا يشتغل خيري دومة على ضمير المخاطب بكلّ أشكاله، لا تحقيقا للتواصل العادي بل تحقيقا للتواصل البلاغي حجاجيا وجماليا، فهذا الاختيار ليس حيلة لغوية لأجل الإمتاع الشكلي، بل استراتيجية خطابية سردية توجّهها مقتضيات حجاجية وجمالية نصيّة ونوعية، فصعود السّرد بضمير المخاطب يقدّم إمكانات بلاغيّة كثيرة يمكن الإشارة إليها في النقاط الآتية:[1]

- الكشف عن تدفّقات الذهن، وعن الغرابة في مخ البطل، وعن الحلم في المغامرات الأسطورية التي تعيشها الذات، ويشي بالذاتية المقموعة، والصراع في اتّخاذ القرارات المصيرية.

[1] د. خيري دومة، أنت ضمير المخاطب في السّرد العربيّ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 2016، ص 200.

- التعبير عن الإمكانات الإيديولوجية، كالتعبير السّاخر لأنواع من الخطاب. وإضفاء الطابع الدرامي على الخطابات المضادة للسلطة القمعية، والتعبير عن الذات المعاصرة غير المستقرّة.
- إعلاء نغمة التجريد بالمعنى البلاغي إذ يجرّد الرّاوي من نفسه شخصا آخر، ينتزعه ويخاطبه معترفا ومسائلا.
- الارتباط بوجود درجة من الانفعال والعاطفة، يعانيها المتكلّم في النصّ، ليدلّ صعود ضمير المخاطب من بين ضميري المتكلّم والغائب على مشاعر أكثر تكثيفا، وانخراطا انفعاليا حادّا.
- كسر الرتابة بإنتاج نغمات وأشكال وصور من مثل نغمة الغناء، والمناجاة، والمصاحبة، والحنو، ونغمة الراوي الشعبي.

إنّ جملة المبادئ التي اعتمدها خيري دومة في قراءته للسرود القائمة على استثمار ضمير المخاطب متعدّدة بين مبدأ الاختيار ومبدأ السيّاق الكلّي النصّي ثم مبدأ السيّاق النّوعي الذي ينطلق من تحولات النّوع الأدبيّ ليرصد خصوصيات كلّ جنس أدبيّ كاستراتيجية الرّاوي المحدّث عند طه حسين، وتداخل القصة مع الحديث والمقال النقدي، واستراتيجية الحديث الشفهي في قصص يوسف إدريس، وفتنة المطالع والتعميم واللغة العامية، وتقنية تيار الوعي في السرد المعاصر، والغنائية في صيغ مناجاة الذات، وطابع الذاتي والشعري في القصّ، والهجائية والباروديا الساخرة في الخطاب الروائي.

خاتمة:

ما نخلص إليه من القراءة المتابعة للمدوّنات النّقدية التي قام بها محمد مشبال هو أنّه سعى إلى تأسيس مشروع بلاغيّ لا يقتصر على الشّعر كحقل اشتغال، ولا يقتصر على أشكال التخييل الكلاسيكي بل ينفتح على كلّ أشكال السّرد ، وبخاصة الرّواية، ليؤكّد على كون بلاغة الرواية أو بلاغة السرد من التحليلات النوعية التي تجاوز بلاغة الصورة الجزئية إلى بلاغة كلية تستثمر المعرفة المتعددة الاختصاصات وما عرفته الساحة النظرية في مجال الأسلوبيات واللغويات والسرديات ومناهج النقد الحداثية والمابعدحداثية.